

نصائح "البستنجي" ريتشارد

غسان سلامة *

في البيت الأبيض، مر بوزارة الخارجية فترة من الزمن، ولكنه عبر أيضاً على جامعة هارفارد لتدريس العلوم السياسية، وهو بالتالي زميل. وهاس الأستاذ أصدر مؤخراً كتاباً عن «النزاعات التي لا تنتهي»، وزميلنا هاس يعلمنا في المقدمة انه تعرف على منطلقنا... من خلال مكوته سنة في إسرائيل، شاهيك عن تنقله بين لندن وواشنطن وقبرص. وكان بديناً طبعاً ان نساله ان لم يكن يعتبر ان سنة موازية على الأقل في واحدة من العشرين عاصمة ونيق من عالما العربي لم تكن ضرورية ولو لقارة المناخ، والتعرف الحقيقي على الناس من غير الزاوية الاسرائيلية الضيقة وغير

المحايدة. وقد جيبنا الزميل انذاك: اطلب العلم ولو في اسرائيل، وهو جواب مقنع طبعاً. وقد يدافع عن نفسه ايضا بالقول ان سنة في اسرائيل قد تكفي للتعرف على المنطقة ولكن سنة في دمشق او عمان او بغداد قد تؤدي لتظرة منحازة نحو العرب.

ولكن ما لنا وماضي الرجل، ففكره هو الأهم. وزميلنا هاس فكرته واضحة: ان كنت مسؤولاً اميركياً، فاياك

ان تسهم في ايجاد حل لنزاع ما، ما لم تكن الشروط لحله قد اصبحت ناضجة. الفكرة بسيطة فعلاً ومقنعة، ولو اننا سألنا اي مزارع في قريتي الجبلية في لبنان، لكان من رأي هاس، فالمزارع ان يقطف تفاحة واحدة من حقله قبل نضوجها، ولن تمس يده خوذة واحدة قبل ان يعلم لونبها بانها اصبحت صالحة للاكل. ثم اننا نتناقل مثلاً قديماً مفاده: من طلب الشيء في غير اوانه، مني بحرمانه.

ما هي شروط النضج، يا دكتور هاس، لكي تهم اميركا بالاسهام في حل النزاعات هي التالية، يقول الدكتور: اولها ان يتوصل الطرفان لرغبة حقيقية في حل النزاع. فاذا كان احدهما يريد سلماً والثاني لم يتوصل بعد اليه، فمن الهبسا ان تحاول التوصل بينهما. وهذا منطوق يشارك مزارعو قريتي

وينهي الدكتور هاس نصائحه بنتيجة صارمة: ان لم تتوافر هذه الشروط خصوصاً الاولان منها، فاياك ومحاولات الصلح. لماذا؟ لانك قد تؤدي الى مضاعفة العقبات، وزيادة التوتر. فان لم تتوفر هذه الشروط فعلى الطرف الثالث (الولايات المتحدة في هذه الحال) ان يكتفي بإدارة الأزمات دون محاولة حلها: التشجيع السطحي، دعم المعتدلين، خلق جو من الثقة. وان قام الطرف الثالث باكثر من ذلك، فانه سيهدد امن واستقرار المنطقة. ويبدو هاس في كتابه متخوفاً من ميل الاميركان الطبيعي للنجاح في تنفيذ الامور مهما كان الطبع، وهو يتخوف ايضا من الروح التغاؤيلية التي نعرفها عن الاميركان والتي تجعلهم يعتقدون ان كل شيء ممكن على هذه الارض.

الويل ثم الويل من هذا التهور نحو السلم والصلح والعمل الديبلوماسي، يقول الدكتور هاس. اياكم والتحرك قبل نضوج الثمرة. ولا بد ان يكون هاس مسروراً في السنوات العشر المنصرمة من تاريخ اميركا حيث اضى رونالد ريغان 8 سنوات في البيت الابيض دون اي مبادرة سلمية في منطقتنا، ودون تشريفنا بزيارة. وهاس يقدر ريغان على حكمته: فامورنا لم تكن ناضجة. وكنا نعتقد ان بوش ليس من دعاة «النضج»، وان تشبيك اللعول، ولكن تعليق الحوار مع منظمة التحرير قد يكون خطوة باتجاه العودة لاننتظار سقوط الثمرة من الشجرة قبل اهم باكلها.

منطق هاس جميل ومقنع... لولا كل الامور الاساسية التي يتجاهلها زميلنا الكريم، لبنته اعلماً مثلاً كيف يقدر موعد النضج. فهو اكد لنا مثلاً ان النزاع العربي - الاسرائيلي ليس ناضجاً بعد، وكان لا عرباً اعترفوا، ولا منظمة اعلنت. واكد لنا ان نزاع جنوب افريقيا غير ناضج، وكان لا مانديلا خرج، ولا دي كليرك تنازل. ثم من قال ان انتظار نضج الثمرة قد لا يؤدي الى تلفها

لانه ليس من يعنني بها، ولان «البستنجي» مشغول عنها بامور كثيرة اخرى في بساتين اخرى في اوربا الشرقية او اميركا الوسطى؛ ثم من قال ان الزعماء المحليين هم امضاً سيفضلون الانتظار البطيء الممل ريثما تنضج الامور؛ فهم قد يقدمون على «انضاج» سريع للامور، كما يحصل للموز في خساره، او للبيض في «الفكاسات» الاصطناعية؛ فهذا السادات يقرر فجأة زيارة اسرائيل، وهذا شارون يقرر غزو لبنان... اين انتظار النضج من كل هذا؟ لكن الانهي هو في ما يخفيه هذا المنطق من سياسات. فمن الطبيعي ان يشير الموظف النشاطر في رئيسه بعدم الاقدام على شيء طالما ان النتيجة غير مضمونة بالكامل. ولكننا نعلم انه لو ترك الامر لموظفي الادارات في بلابنا وغيرها، لما كان حاكم قد اقدم على شيء، لان المنطق الدائم عند الموظف هو ترك القديم على قدمه. الكلمة التي تثير العرب في قلب اي موظف هي كلمة المبادرة او كلمة التخخير. وفي هذا فان هاس موظف مثالي.

لكن النزاعات ليست كخمرات الحقل، تنضج بهدوء في الشمس بينما ينظر اليها المزارع المحب بعين الحنان والانتظار الابوي. النزاعات ايها الزميل العزيز، ماكينات جهنمية تدور على نفسها وتقضي على الناس يمة ويسرة: تقتل الآلاف، وترمل النساء، وتهجر الاطفال. فبينما تنتظر، ايها البستنجي الشاطر في مكتبك في واشنطن، تبدو الامور في منطقتنا ليست على نضوج بل هي تزداد عجزاً: فاسرائيل تقتل صبية فلسطين، وتستقدم الآلاف للحلول مكانهم في بيوتهم، وحرب لبنان مستمرة، والنزاعات مفتوحة على مصراعها لا على نضج السلام بل على مزيد من المءاء والدمار، بسبب انتشار الاسلحة الشديدة التدمير، نووية وكيمياوية وبيولوجية.

لا ايها الزميل العزيز: فالنزاعات ليست ثمرات ابنت، والديبلوماسية ليست نوعاً من انواع الاهتمام بالبيساتين. ولكن هب انك على حق، وان تشبيك اللعول السياسية بالنزاعة في مكانه. اذذاك قد يقول لك احد مزارعي قريتي الجبلية، وهم صدقني، من اجود مزارعي جبال لبنان، ما يلي: ان بستنجياً مكث سنة كاملة بين خوحدات اسرائيل لا يمكنه من هناك التعرف على تفاحات العرب. وقد يضيفون ان البستنجي الذي يهتّم بخوحدات الجار وينسى تفاحاتنا ليس صالحاً للحكم لا بنضج الفواكه ولا بجودة طعامها.

* استاذ العلوم السياسية في جامعة باريس الابل.